



الطوبونيميا والخصوصية الثقافية - الجزائر أنموذج-

Toponymy and Cultural Specificity: Algeria as a Model

الأستاذ الدكتور: جمال معتوق

جامعة البليدة 2

matouk59@yahoo.fr

الملخص باللغة العربية

يعالج المقال علم الطوبونيميا بوصفه علماً أساسياً لفهم العلاقة بين الإنسان والمكان، وكشف الأبعاد الاجتماعية والثقافية والتاريخية للأماكن. ويؤكد أن أسماء الأماكن ليست مجرد تسميات، بل تحمل ذاكرة الجماعة وهويتها وخصوصيتها الحضارية، كما يبين أن الطوبونيميا تتقاطع مع التاريخ والجغرافيا واللسانيات والأنثروبولوجيا وغيرها من العلوم. ويتناول دورها في استرجاع الأسماء الأصلية وفهم التحولات التي عرفت عبر الزمن، خاصة في ظل الاستعمار. ويخلص إلى أن الطوبونيميا أداة مهمة لحفظ الذاكرة الجماعية وتعزيز الانتماء والهوية الثقافية.

الكلمات المفتاحية: الطوبونيميا، علم أسماء الأماكن، الذاكرة الجماعية، الخصوصية الثقافية

Abstract:

The article examines toponymy as a fundamental field for understanding the relationship between humans and place, and for revealing the social, cultural, and historical dimensions of places. It emphasizes that place names are not merely labels, but carry the memory of a community, its identity, and its civilizational distinctiveness. It also shows that toponymy intersects with history, geography, linguistics, anthropology, and other disciplines. The article addresses its role in recovering original names and understanding the changes they have undergone over time, especially under colonial rule. It concludes that toponymy is an important tool for preserving collective memory and strengthening belonging and cultural identity.

Keywords: Toponymy; Place names; Collective memory; Cultural specificity

مقدمة

يعد علم الطوبونيميا من العلوم المحورية في العلوم الإنسانية والاجتماعية نظرا لمل للمكان من أهمية في حياة الأفراد وكذلك كونه يعد المفتاح الذي يسمح لنا بكشف أسرار الحياة الاجتماعية والثقافية من جهة وقصة الإنسان بالمكان (المجال أو الفضاء).

أولا: في معنى الطوبونيميا

يعرف علم الطوبونيميا (Toponymie) بالعلم الذي يهتم بدراسة أسماء الأماكن الجغرافية وتفسير معانيها واشتقاقاتها وأصولها اللغوية، والنطاق الجغرافي لانتشارها وتطورها التاريخي.¹ كما عرفت الطوبونيميا على أنها "علم أسماء الأماكن مشتقة من Topos التي تعني المكان و (Onomia) التي تعني الاسم، وبهذا فهي علم دراسة الأماكن من كل جوانبها، صياغة ومعنى وتطورا وأثرا على المجتمعات وثقافتها، وتهل الطوبونيميا من كل العلوم."²

كما أن الطوبونيميا علم يحتك بالعديد من فروع المعرفة ويستغلها في تطوير مداخله ومقارباته النظرية من جهة، بالإضافة إلى لجوء العديد من العلوم إلى الطوبونيميا والاستفادة منها: كالتاريخ، الجغرافية، علم الآثار، الأنثروبولوجيا، اللسانيات، أدب الرحلات وغيرها من العلوم والفنون الأخرى.

زيادة على هذا فالطوبونوميا "تهتم بأسماء الأماكن دراسة وتحليلا" من حيث صياغتها ومعناها وتطورها، وذلك بالاعتماد على عدد من الحقول المعرفية كالتاريخ واللغة، والأنثروبولوجيا، والجغرافية، كما يتطرق هذا العلم إلى كل التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية التي طرأت على المجتمع عبر مختلف الحقب التاريخية، وذلك من خلال ماهية المكان وتسميته الطوبونيمية.³

إن الطوبونيمية أو علم تسمية الأماكن لا تقتصر دلالاته وأبعاده في إطلاق الأسماء على الأماكن، بل يتعداها ليصبح بمثابة الخزان الذي يزودنا بأدق التفاصيل حول المكان أو البيئة الجغرافية التي أطلقت عليها هذه التسمية، فبفضل الطوبونيميا يمكن التحول عبر مختلف المراحل التاريخية التي مر بها المكان (le lieu) ومعرفة طبيعته وأوضاعه وكذلك مجمل التغيرات التي شهدتها عبر التاريخ.

وعليه نقول إن الطوبونيميا تسمح لنا بالوقوف على قصة وتفاصيل المعلومات عن المكان وخاصة التغير الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي الذي عرفه.

كما يساعدنا على معرفة خصائص المكان وعلاقة الاسم به، أي لماذا سمي بهذا الاسم أو الأسماء، وما علاقة هذه التسمية بطبيعة هذا المكان. وعليه فإن "للأماكن أسماء تعرف بها ويتم التعامل معها بعلم أسماء الأماكن"⁴ أو الطوبونيميا

¹ مرشد علوان حسين الدوجان، الطوبونيميا التاريخية لمدينة جرش، دراسة في أسمائها وألقابها، الأردن، 2022، ص. 9.

² مليكة صالحي: "الأودونيم في مدينة البليدة بين تأصيل الهوية والتشويه الكولونيالي، المجلة التاريخية الجزائرية، العدد 2، وهران، الجزائر، 2021، ص. 686-687.

³ الصادق زباني: "التحولات الطوبونيميا بالمجالات المكانية من نهاية الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الهجري التاسع/15م"، دراسة نماذج مدارات تاريخية، العدد 04، الجزائر، 2019، ص. 39.

⁴ سليمة يحيوي، نحو بناء معجم طوبونيمي إلكتروني لخدمة السياحة - تلمسان أنموذجا-، رسالة دكتوراه في الدراسات اللغوية بين القديم والحديث، جامعة أبو بكر بلقايد، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وأدائها، 2017-2018، ص. 13.



Toponymie فهي مشتقة من الكلمة اليونانية Topos والتي تعني المكان، و Onomia والتي تعني الاسم، وهي العلم الذي يدرس أسماء الأماكن المعروفة بالطوبونوميات Toponymies.⁵

يندرج علم الطوبونيميا ضمن علم أوسع يهتم بدراسة الأسماء والأعلام، حيث عالجت الثورة المعرفية الحديثة بظهور هذا التوجه الجديد المعروف باسم "الإعلاميات" كمقابل للفظ الأجنبي L'onomastique (الأنوماستيك)، أي فلسفة الإنسان في تسمية ما حوله.⁶

ثانيا: فروع الطوبونيميا

أ- الطوبونيم Toponyme: ويعني بدراسة الأمكنة، وهو بدوره أقسام معلومة (حيث تنحدر تحته الهيدرونيما أو المجاري المائية).⁷

كما يعرف الطوبونيم أنه: ترجمة "صوتية" للمصطلح الفرنسي (Toponyme) يطلق ويعني به "اسم المكان الجغرافي"، وجمعه (Toponymes) أي "أسماء الأماكن" التي تمثل جملة النصوص التي تظهر على الخريطة، لتدل على أسماء وأنواع التجمعات، أو الأودية، أو الغابات، أو العروق، أو الجبال...، يدرج الطوبونيم ضمن الصنف الرابع في الرموز الجغرافية (Symboles Conventionnelle) إلى جانب التفاصيل النقطية Ponctuel والخطية والسطحية Surfactive.⁸

ب- الأنثروبونيميا L'anthroponymie: وتعني بدراسة أسماء الأشخاص من حيث بنيتها وتركيبها ودلالاتها ومرجعيتها، وضمنها مباحث اسمية مختلفة (الإيثنومينيا) أو (علم الأعراق). وعليه فعلم الطوبونيميا على رغم حداثة إلا أنه كان حاضرا، كون تسمية الأماكن (المواقع) كانت ولا تزال حاضرة في العديد من الأعمال العلمية.

ثالثا: أقسام الطوبونيميا

تنقسم الطوبونيميا إلى قسمين أو نوعين وهما:

أ- الطوبونيميا الرسمية: وهي مجمل التسميات أو الأسماء التي تطلقها الدولة من خلال أجهزتها الرسمية كالبليات والدوائر والولايات وغيرها من المصالح التابعة لوزارة الداخلية على الأماكن.

ب- الطوبونيميا غير الرسمية: وهي الأسماء التي يطلقها الناس على الأماكن، كما هناك انتشار كبير لهذا النوع من الأسماء بل أصبحت الأسماء غير الرسمية هي الأكثر حضورا واستعمالا.

⁵ إدريس محمد الأمين، إشكالية ترجمة الأسماء الموقعية من منظور استراتيجي، التدجين والتغريب بالترجمة، الأردن، ص. 05.

⁶ أسماء حمادية، أسماء الأعلام في الجزائر مقارنة أنثرولسانية، أعمال ملتقى ملامح وحدة المجتمع الجزائري من خلال الواقع اللغوي الأنوماستيكي الطوبونيمي في مجتمع المعرفة، دار الخلدونية للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2018، ص. 204.

⁷ رؤوف بن الجودي، الطوبونيم الجزائري... المفهوم وأشياء أخرى، نقلا عن <https://fawassil.echaab.dz/2023/03/04> الطوبونيم الجزائري مفهوم وأشياء أخرى.

⁸ أسماء حمادية، مرجع سبق ذكره، ص. 204.



-الهيدرونيم **Hydronyme**: مقتبسة من المركب الإغريقي Hydro الذي يعني الماء وتدرس أسماء الأماكن التي لها علاقة بالماء مثل: عين، بئر، واد...إلخ.

-الأورونيم **Oronyme**: من المركب الإغريقي Oros تعني جبل، وتدرس أسماء الأماكن التي لها علاقة بالتضاريس مثل: جبل، هضبة، وتل.

-الإثنونيم **Ethnonyme**: تسمية أسماء الأعلام التي تخص العرق كأسماء القبائل.

-الأجيوتوبونيم **Hagrotoponyme**: لفظ مركب من Hagros وتعني والي صالح وقديس، ويخص أسماء الأماكن التي لها علاقة بالأولياء الصالحين والقديسين.

-الأودونيم **Odonyme**: من المركب الإغريقي Odos ويعني الطريق ويخص دراسة أسماء الطرقات والشوارع والدروب.

رابعا: فيما تفيدنا الطوبونيميا؟

-استرجاع الأسماء الأصلية للأماكن والتي وضعت أو تم تغييرها عبر التاريخ، كما حدث بالنسبة للعديد من الأماكن خلال فترة الاستعمار.

-تسمح لنا بمعرفة القصة الكاملة التي تربط الإنسان بالمكان الذي تم تسميته (أي كسبه هوية)، وهنا يبرز دور عالم الآثار والتاريخ والأنثروبولوجيا.

-تسمح لنا بفهم دلالات أو معاني هذه الأسماء للأماكن.

-تعطي لنا صور حية عن الحياة الاجتماعية والثقافية للمنطقة.

-معرفة أهم التحولات التي عرفتها المنطقة (عامل التغير الاجتماعي) وما انجر عنها.

-تسمح لنا بمعرفة أهم اهتمامات سكان ذلك المكان أو المنطقة.

-أصل تسمية المكان يسمح لنا بمعرفة تفاصيله وخصائصه والطابع الغالب على هذا المكان (أي ما يتميز به أو ينفرد به من خصائص وإمكانات مقارنة بالأماكن الأخرى).

وفي هذا الصدد يقول الباحث Atoui Brahim: "تكون هذه التسمية مرتبطة أساسا مع جغرافية المكان، أو مع نوع النبات أو الحيوان الذي يكثر تواجده بذلك المكان، أو مع أسامي تربط الشعوب بأراضيهم من قبائل وعائلات أو حتى أسماء لأولياء صالحين انتقلوا إلى ذلك المكان، فهي دراسة لاسم المكان من الناحية التاريخية، أو الجغرافية، أو الأنثروبولوجيا، أو الدينية أو العرقية".⁹

من جهته يرى شارل روستانج Charles Rostaing أن "الدراسة الطوبونيمية تساهم في استرجاع الأسماء الأصلية التي شوهت نتيجة المسح الضوئي في عصور مختلفة، حيث أنها تقوم على دراسة الأسماء حتى يتسنى فهم ما قصده المجتمع من خلالها، وهي تروي المجتمع وتمكننا من قراءة ثقافته واهتماماته وتطوراتها".¹⁰

⁹ Atoui Brahim : Toponymie et espace en Algérie, Géographie, Université de Provence-AIX-Marseille, 1996, France NNT : 1996 AIX 10098, p. 33.

¹⁰ Charles Rostaing : Les Noms des lieux, éditions P. U. F, Paris, 1945, p. 05.



نحن لا نشاطر روستانج في كلامه هذا والذي اختزل فيه هدف علم الطوبونيميا في استرجاع الأسماء الأصلية والتي في الحقيقة هي جزء من بين هذه الأهداف، حيث أن للطوبونيميا عدة أهداف وخاصة أنها تزودنا بقصة المكان وعلاقة الإنسان به، وما نتج عبر التاريخ من أحداث نتيجة لهذا الفعل.

كما أنه لم يحدد لنا الأسباب الحقيقية والتاريخية لتشويه الأسماء الأمكنة، وخاصة الفعل الاستعماري مثلا ودوره في ضرب مقومات البناء الثقافي للشعوب وعلى رأسه أسماء الأماكن، وخير دليل على هذا ما حدث في مستعمرة الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي والذي سنشير إليه بشيء من التفصيل في هذا العمل.

نقلا عن ألبيرت دوزا، نجد عطوي إبراهيم يقول: "أن الواقعية تمكننا من فهم الشعبية وميولها سواء كان أسطوريا أم حقيقيا، والوسائل التي تعبر بها."¹¹

ودائما حسب عطوي إبراهيم (Atoui Brahim): تكون هذه التسمية -للمكان- مرتبطة أساسا بجغرافية المكان، أو مع نوع من النبات أو الحيوان الذي يكثر تواجده بذلك المكان، أو مع أسامي تربط الشعوب بأراضيهم من قبائل وعائلات وحق أسماء لأولياء صالحين انتقلوا إلى ذلك المكان.¹²

ويمكن أن نلخص أهمية هذا العلم في النقاط الآتية:

- 1-يساعدنا على تحديد هوية المنطقة.
 - 2-يزودنا بالمعرفة والمعلومات الخاصة بمن سكنوا أو يسكنون بتلك المناطق أو الأماكن، وهذه المعلومات تكون ذات طابع: اجتماعي، ثقافي، سياسي، ديني، تاريخي، اقتصادي.
 - 3-تساهم الطوبونيميا في إحياء الذاكرة الجماعية وبناء الهوية الثقافية لجماعة ما أو مجتمع ما.
 - 4-تساهم في الحفاظ على البعد الحضاري والثقافي وخصوصية السكان.
 - 5-تساعدنا في الوصول إلى معلومات تاريخية: نشأة المنطقة هذه، المراحل التاريخية التي مرت بها، الهجرات الموافدة إليها (التدفقات البشرية)، الكوارث التي حلت بها، الحروب التي عرفتھا، التطور اللغوي الموجود بها (اللهجات التي كانت سائدة واندثرت...إلخ).
 - 6-يمكن أن توفر لنا دراسة أسماء الأماكن نظرة ثقافية للتغيرات الدينية في المنطقة، مثلا التحول من ممارسة دين أو شعائر دينية إلى دين أو شعائر أخرى (مثلا الانتقال من المسيحية إلى الإسلام، من السنة إلى الشيعة...إلخ).
- تستخدم الأسماء الجغرافية من قبل مجموعة واسعة من الجهات الإدارية والتخطيط، مثل إحصاءات السكان والتعداد...

-تجلب فوائد فنية وثقافية واقتصادية واجتماعية للبلاد.

-اسم المكان هو بمثابة هوية المكان c'est l'identité de ce lieu.

خامسا: التسمية هي قصة المكان:

¹¹ Atoui Brahim : Toponymie et espace en Algérie, thèse pour l'obtention du diplôme de Doctorat, Géographie, université de Provence –AIX- Marseille, 1996 ; p. 33.

¹² Ibid., p. 33.

بينت الحفريات التي أجراها العديد من العلماء في ميادين العلوم المختلفة كعلم الحفريات، الأنثروبولوجيا، التاريخ، الجغرافيا، وغيرها من العلوم الأخرى، أن المكان يحتل مكانة مقدسة وحميمية في حياة الإنسان وحتى مصيره.

حيث يمكن القول بوجود علاقات عضوية خاصة تربط الإنسان بالمكان، بل يمكن أن نذهب إلى أبعد من هذا لنقول بوجود تداخل كبير بين الإنسان صانع الثقافة والحضارة والمكان، لقد أصبح المكان يعبر عن وجود مصير الإنسان، فالأرض هي امتداده الطبيعي وشرفه الذي لا يساوم، إن المكان بعبارة أدق هو أهم قطعة من الجسد الإنساني.

لقد اكتسب الإنسان إنسانيته من خلال استئناسه وترويضه للمجال، وذلك منذ أن نزل آدم إلى الأرض، فأصبح المكان موضوع صراع وتناحر، من يفوز به يفوز الوجود والحرية.

نجد على سبيل المثال عند الجزائريين المقولة الشهيرة القائلة أن (المنزل أو البيت (الدار) كمكان للعيش والسكن هو بمثابة "قبر الدنيا"، بل هو السترة.

لقد تحول المكان من شيء إلى كائن تطلق عليه الأسماء المختلفة وذلك لتعبر عن مكانته وقيمه في الحياة الاجتماعية والثقافية.

كما أن تسمية الأماكن تعكس أو تعبر على قيمنا وقيم أجدادنا، بالإضافة إلى السيرورة التاريخية الثقافية لتشكيل المجتمعات الإنسانية.

فأسماء الأماكن هي بمثابة السجلات التي تروي لنا قصص الذين تفاعلوا مع تلك الأمكنة وخصائصها وطبيعتها، كما أنها تروي لنا الثقافات والحضارات التي تشكلت حولها وبداخلها.

لا تزال البحوث العلمية تسعى لكشف أدق التفاصيل عن الأسرار التي يحتفظ بها اسم المكان، وهذه البحوث لا تقتصر كما قلنا على علم بعينه، بل هناك العديد من العلوم تهتم بما يسمى بالطوبونيميا حتى تقف على حقيقة المكان ومعنى الاسم الذي أعطي له وكيف اكتسب هذا الاسم الصفة الشرعية وفرض وجوده من جهة وخاصة التحولات التي عرفها عبر التاريخ.

ولهذا يحمل كل اسم مكان العديد من المعاني، ليس فقط تلك المرتبطة بأصله الفعلي (أي معناه الأساسي)، ولكن من خلال حركته عبر الزمان، وعليه فاسم المكان هو اسم ديناميكي، له روح وحركية وجمال ودلالات اكتسبها كلها بفضل مقاومته عبر التاريخ وتلاحمه مع الإنسان، ولهذا نقول بأن الاسم أو التسمية له روح وبعد جمالي استيتيكي Un côté esthétique.

وفيما يخص الثنائية الإنسان واسم المكان Toponymie، نقول بأن هذا الأخير يروي لنا كيف قامت أو تأسست المدن، القرى، البلدان، القبائل، الحضارات... إلخ، والمراحل التي مرت بها، كذلك يزودنا بالقاموس الخاص بالأسماء التي أطلقت والألقاب على الأماكن وكيف تحولت مع الزمن، وكذلك على أي أساس أطلقت هذه الأسماء وما المقصود من ورائها؟

كما نرى بأن الأسماء الجغرافية تحمل قصص تأخذ أهميتها وأبعادها من خلال الوظائف العديدة التي تقدمها للسكان المحليين (بمعنى أن هؤلاء السكان هم من يعطي هذه القيمة والأهمية للأماكن من خلال نعتها). فالاسم هو شهادة تعبر عن قيمة ومكانة المكان في حياة الأفراد، هذه المكانة تزيد في تقوية الصلة والروابط بين الإنسان والأرض، إنها بمثابة مرجعية (أسماء الأماكن) وبنك للمعلومات تحكي تفاصيل الذين مروا منها أو الذين سكنوها...

سادسا: مكانة المكان في حياة الإنسان:

تحتل الأمكنة (الأماكن) مكانة خاصة في حياة الإنسان، بل تعد بمثابة الهوية (l'identité). كما تربط الإنسان بالمكان علاقات حميمية تتخذ تارة أبعاد القداسة ومعنى الوجود في هذا الكون.

لقد بين علم النفس البيئي قيمة ومكانة المكان في حياة الأفراد، فالمكان هو حيز جغرافي له حدود واضحة المعالم وسمات جغرافية وعمرانية تميزه عن غيره. فالمكان حسب المدرسة التفاعلية الرمزية كما يقول العالم جوفمان Erving Gauffman هو "مسرح الحياة" الذي تجرى فوق خشباته العديد من الأحداث (les événements) يصنعها الإنسان في الغالب.

وعليه فالمكان هو أحد أهم مكونات وأركان هذا الوجود، ومنه نقول بأن المكان هو الوجود le lieu c'est l'existence. وهل يمكن تصور شعب أم جنس خارج دائرة المكان، أي شعب لا يكسب لمكان يحيا فيه؟ إن الشرط الأساسي والضروري لقيام المجتمعات والحضارات هي أن تبسط يدها وهيمنتها على مكان ذا حدود معلومة ومعروفة. وعليه نقول بأن المكان يكسب صاحبة غاية الوجود، بالإضافة إلى عامل الزمن وباقي الأشخاص الآخرين الذين يتفاعل معهم.

ولهذا يقول "ديفيد توغل": لا يمكن أن نتخيل أفكارا أو قصصا خارج إطار مكاني واضح، وإذا لم نعرف المكان المشار إليه في هذه القصص فإننا نشكل مكانا مألوفاً لنا ونحرك فيه الشخصيات.¹³

كل الأحداث، كل التاريخ الإنساني وملحماته دار في أمكنة محددة وفي زمن محدد، فالمكان هو بمثابة الشاهد على قصة الإنسان فوق هذه البسيطة، وعليه لا يمكن أن نتصور أي أفكار أو ابتكارات أو صراعات... إلخ خارج دائرة الزمن والمكان.

غير أن المكان ليس مجرد تضاريس وحجارة وجغرافية، إنه شيء أشبه بالكائن، نحبه وكرهه، نهجره ونحن إليه، يحتضننا ويقسوا على البعض ليدفعهم إلى الهجرة والرحيل بعيدا نحو أمكنة أخرى تكون أقل ألفة وحميمية¹⁴ (أنظر مثلا الحراقة الذين يتركون أوطانهم والأماكن التي ترعرعوا فيها والتي ألفوها لأماكن بديلة لا يعرفون عنها شيء، أماكن في الغالب عدوانية).

المكان الذي ولد ونشأ فيه الفرد هو أفضل الأمكنة على الإطلاق بالنسبة للفرد وبالتالي تربطه به علاقات حب وتلاحم حيث يشعر الفرد في هذا المكان بالراحة النفسية، بالسعادة.

وهذا ما يدفعنا للقول بأننا "نجد الإنسان" شوفينيا Chauvin ومتعصبا لمكان ولادته ونشأته بشكل غير مفهوم، وكل واحد يتكلم عن منطقته كأنها الجنة، لدرجة يبدو معها هذا الارتباط بين الإنسان والمكان ارتباطا وجوديا فلسفيا يصعب فهمه أو تفسيره أحيانا، سواء عند الإنسان البسيط أو حتى عند النخبة من المثقفين والكتاب والشعراء...¹⁵ المكان لا يحتسب سحره وقدسيته أو جماله الطبيعي والجغرافي بل من أناسه الذين صنعوا به ذكرياتهم وغزلوها بالحب بين شعاب الوقت الذي يفيض عن يومياتهم وسنواتهم، حتى تتحول الأمكنة إلى مزارات ودور عبادة يعود إليها المغتربين ليقبلوا تراها ويداوي بها المغترب ما علق بقلبه من غم في البعد والاعتراب...¹⁶

¹³ عبد السلام جليط: صداقة الأمكنة <https://www.aljazeera.net/blogs/2017/5/9> صداقة - الأمكنة، تاريخ التصفح: 2024/02/06.

¹⁴ نفس المقال، ونفس الموقع ونفس تاريخ تصفح المقال.

¹⁵ نفس المقال، ونفس الموقع ونفس تاريخ تصفح المقال.

¹⁶ نفس المقال، ونفس الموقع ونفس تاريخ تصفح المقال.

وهذا الحديث الشريف الذي رواه الإمام الترمذي يروي لنا حب الرسول صلى الله عليه وسلم لمكة، فيقول: "ما أطيبك من بلد، وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك".

هكذا نلاحظ أن الرسول الكريم كان يفضل، بل يحب مكان ولادته "مكة" أكثر من أي مكان. كما أنه كان يحثنا على التعلق بالأرض لأنها المصير وغاية من غيات الوجود. كما أن تاريخ الإنسانية هو تقريبا كلها صراع من أجل الحفاظ والدفاع على الأرض. وخير دليل مختلف الحروب والثورات التي قامت ومن بينها الثورة الجزائرية المباركة من أجل تحرير الأرض الجزائرية من المغتصب الفرنسي.

كما أن كل الأساطير والملحقات أكدت على العلاقة العضوية بين الإنسان صانع الثقافة والمكان، وأن الثقافة بشقيها المادي والمعنوي كانت دائما وأبدا تحمل صبغة وبصمات، بل خصوصيات المكان الذي انبثقت منه.

وأول مكان يتعلق به الإنسان ويرتبط به عاطفيا ووجوديا هو المنزل الذي نشأ وتربى فيه، كما يصفه الفيلسوف الفرنسي "غاستون باشلار" Gaston Bachelard هو "المكان الذي مارسنا فيه أحلام اليقظة وتشكل فيه خيالنا ومن غيره يصبح الإنسان كائنا مفتتا". ويضيف قائلا: "البيت هو ركننا في هذا العالم"، ولهذا يتعلق الإنسان بمكان الولادة والطفولة ويعود إليه باستمرار حتى لو فرضت عليه ظروف الحياة الخروج منه وهجرانه لأنه جزء أساسي من بنيتنا النفسية ونقطتنا المرجعية وجوديا في هذا العالم.¹⁷

وعليه يمكن القول بأن المكان يحتل مكانة أساسية في حياة الفرد، بل يصبح مع مرور الزمن جزء لا يتجزأ من كينونته، حيث أن هذه المكانة تكون حميمية أكثر منها مادية، فكل الرموز التي تجسد هذا الموقع تصبح تشد صاحبه وتذوب في شخصيته.

سابعا: الاستعمار وفرنسة الأماكن في الجزائر:

حاول المستعمر جاهدا فرض سياسة الإدماج الكلي للمستعمرة (الجزائر) وجعلها جزءا لا يتجزأ من فرنسا، ولهذا نجده قد انتهج العديد من السياسات والإجراءات التعسفية لإنجاح هذه العملية ومن ورائها القضاء على الخصوصية الثقافية لهذه الأرض وسكانها، بل عمل على ضرب الهوية الوطنية وتفتيت النسيج الاجتماعي والثقافي.

ومن بين هذه السياسات والإجراءات نذكر الجرائم المرتكبة في حق المكان في الجزائر، والمتمثلة في خلع الأسماء الأصلية لمختلف الأماكن (المدن، القرى، المداشر، الجبال، الطرقات، الشوارع... إلخ. ووضع بدلها أسماء لضباط فرنسيين، أو علماء فرنسيين وأدباء وغيرهم من الشخصيات الاجتماعية والسياسية.

لقد عمل المستعمر على ضرب الذاكرة الجماعية ومحاربة كل ما له صلة بالعروبة والإسلام واستبداله بالرموز الفرنسية واللاتينية.

كما حاولت فرنسا من خلال هذه العملية نشر ثقافة النسيان والجهل بكل ما له صلة بالتراث المادي والمعنوي على غرار أسماء الأماكن. وما زلنا إلى يومنا هذا نعاني من هذه الممارسات خاصة في المدن الكبرى وهذا بعد أن نالت الجزائر استقلالها، حيث مازلنا مثلا في العاصمة نسمع الأسماء التي أطلقها المستعمر على الشوارع والأحياء وغيرها من الأماكن مثل:

-Air de France.

-Climat de France.

-Poirson.

-Lavigerie.

¹⁷ نفس المقال، ونفس الموقع ونفس تاريخ تصفح المقال.



في المقابل مازالت الطزبونيميا الاستعمارية منتشرة في أغلبية الدن الجزائري وليس العاصمة كما أشرنا سابق، ففي مدينة البليدة نجد تداول بقوة أسماء لضباط وجلادين استعماريين من امثال:

Montpensier
Joinville
Beauprête
Dalmatie

وغيرهم ممن قتلوا الجزائريين وتفننوا في الإبادة وهذا بالرغم من نيل الجزائر لاستقلالها منذ 62 سنة واطلاقها لطوبونيميا جزائرية!

ملاحظة: يجب عدم الخلط بين أسماء الفرنسيين السفاحين المجرمين الذين مارسوا التقتيل أو ساندوها والفرنسيين الذين ساندوا الثورة التحريرية بل مات البعض منهم من أجل تحرير الجزائر، لا نرى مانعا في أن تطلق أسماء هؤلاء على شوارعنا ومدننا وحدائقنا... إلخ، بل هذا أدنى ما يمكن أن نقدمه لهم.

من صور الغزو التي تنتشر بقوة عندنا وهي انه بالرغم من إطلاق أسماء جزائرية وعربية وحتى عالمية على الأماكن عندنا إلا أن البعض مازال يفضل استعمال الأسماء الفرنسية وهذا ما يؤكد نظرية ابن خلدون "المغلوب مولع أبدا بالاقتراء بالغالب" ونظرية مالك بن نبي "القابلية للاستعمار".

كما نشير إلى فشل المؤسسات التنشئة الاجتماعية وعلى رأسها المدرسة في القضاء على هذه الظاهرة المرضية والتي يعتقد البعض بأنها موضحة وشكل من أشكال التقدم والعصرية.

فرنسة الأسماء: العلمية المغشوشة لتسمية الأماكن في الجزائر إبان الاحتلال:

لم يكتف المستعمر الفرنسي بوضع القوانين مثل قانون الحالة المدنية الذي وضعته الإدارة الاستعمارية الفرنسية في 23 مارس 1982 والمسمى كذلك بقانون الألقاب والذي ينص على استبدال ألقاب الجزائريين الثلاثية واستبدالها بألقاب لا ترتبط بالنسب، بل نجدها كما قلنا سابقا فرنسة أسماء الأماكن الجزائرية من خلال تمجيد وتخليد جنرالاتها وضباطها ورجال سياستها التوسعية في الجزائر، ولهذا الغرض فقد لجأت إلى العلماء لتحقيق هذه الغاية، خاصة المشتغلين في علم الآثار، التاريخ، علم الاجتماع والأنثروبولوجيا وهذا من أجل التنقيب على الأصول الرومانية والمسيحية للمدن والقرى الجزائرية.

ونذكر هنا البعض من هذه الأعمال (الحفريات) المزعومة:

- العمل الذي قام به أدريان بربروجير Adrien Berbrugger ابتداء من عام 1834 حول الطرق الرومانية والنقوش اللاتينية.

- تقري الجنرال نغري Negrier حول المعالم الأثرية الرومانية لمدينة تبسة عام 1842.

- تشكيل اللجنة العسكرية للبحث عن المعالم والمواقع الأثرية وخاصة شبكة الطرقات، لجنة ببجاية سنة 1853.

- لجنة علمية ضمت العديد من الضباط وعلى رأسهم كاريت Carette المختص في الطبوغرافيا وعلم الخرائط

وأصدر العديد من الأعمال حول رومانية ولاتينية الجزائر وإعادة إحياء الأسماء الرومانية القديمة للأماكن.

ألف كاريت العديد من الدراسات حول منطقة بلاد القبائل، ومن جهته انجز الاثنولوجي والضابط العسكري

"بيلسييه العديد من البحوث حول أصل القبائل سكان الجرجرة وهجرتهم في إفريقيا الشمالية وخصوصا الجزائر سنة

1853. من جهته قام ادرين بيربرجير بالتنقيب عن الاثار الرومانية المسيحية في العديد من المناطق الجزائرية كم منطقة



"الجميلة"، و "شرشال" وغيرها من الأماكن الأخرى عازما من ورائها على تأكيد الفرضية القائلة بأن بلاد الجزائر كانت وستبقى مقاطعة من الحضارة الرومانية المسيحية.

كما لا ننسى الدور الكبير الذي لعبه ستيفان غزيل Stéphane Gsell في إثراء البحث الأثري وإحياء الأسطورة اللاتينية الرومانية بالجزائر.

تبقى القائمة مفتوحة نظرا للعدد الهائل من الأعمال في هذا الباب.

بالإضافة إلى فيليكس غوتيه Emile Félix Gautier المتعدد المواهب والتخصصات، عالم جغرافية، إثنوغرافي وأنثروبولوجي فرنسي خلال الحقبة الاستعمارية كان من كبار المنظرين للأطروحة اللاتينية الرومانية في الجزائر، والذي عمل جاهدا في التنقيب والبحث على الجذور اللاتينية الرومانية وذلك من خلال الحفريات العديدة التي أجراها والأعمال التي نشرها ونذكر هنا خاصة أعماله:

-Etudes d'Ethnographie Saharienne, 1907.

-l'Algérie et la Métropole, 1920.

-les Siècles obscures du Maghreb, 1927.

وغیرها من الأعمال الأخرى التي اهتمت بإعادة الروح لأسماء الأماكن والمعالم اللاتينية الرومانية في الجزائر وضرب كل ما هو عربي إسلامي. تعد في نظرنا فرنسة الأماكن من أخطر الممارسات الاجرامية التي ارتكبت في حق كل من الأرض الجزائرية والمواطن الجزائري.

ثامنا: الأرض وإشكالية الانتماء:

كان ولا يزال إلى يومنا مشكل قائم يتمثل في مسألة الانتماء الحضاري وكذا وجود الكيانات والدول. لقد عانت، ولا تزال العديد من الدول من هذه القضية، خاصة خلال الحقبات الاستعمارية التي عرفت العديد من الدول والحضارات. ولكي نضرب مثال عن هذا نقول بأن المستعمر الفرنسي عند غزوه للجزائر وخدمة لمشروعه التوسعي التدميري اصطنع أسطورة الأرض المهجورة التي لم تكن في يوم من أيام دولة قائمة بحدودها ومعالمها كما هو معروف عند باقي الدول الأخرى. فقد كان يروج إلى أن الجزائر هي مجمعة من الأعشاش أو الأوكار للقراصنة والمجرمين وأنماط لم تكن في يوم من الأيام دولة قائمة. هذه التصريحات الكاذبة وجدت لها أنصار من المفكرين الكولونياليين من أمثال توكفيل، غوبينو، أرندست كريت، دو نوفو، الاب انفانتان وغيرهم من كبار المنظرين للتوسع الاستعماري الفرنسي. كما لا ننسى العديد من الادباء والفنانين الذين ساندوا وروجوا للاستعمار الفرنسي في الجزائر وعلى رأسهم الاديب والروائي والشاعر فيكتو هيجو الذي صرح قائلا: "هيا أيها الناس استولوا على هذه الأرض، احصلوا عليها، لمن تعود ملكيتها؟ انها ليست ملكا لاحد، اذهبوا واحصلوا على هذه الأرض لأجل الرب، انه هو الذي يهب الأرض للناس، والرب أهدي افريقيا لأوروبا".

ولهذا نجد المستعمر الفرنسي حاول جاهدا القضاء على كل المعالم الطوبونومية الجزائرية واستبدال الأسماء الأصلية بأسماء فرنسية (إعادة تسمية الأماكن Baptiser les lieux) واتباع سياسة التغريب والتحامل على كل ما له صلة بأسماء المدن الجزائرية وقبائلها وتاريخها.

كما قام مثلا أعضاء من البعثة العلمية وعلى رأسهم أدريان بروبيجار Adrien Brubrugger بحفريات وتنقيب للبحث عن الآثار الرومانية والمسيحية للقول بأن هذه الأرض أرض تابعة للكنيسة وأنها اغتصبت من طرف المسلمين العرب وأن ما تقوم به فرنسا ه إعادة إلى حضيرة الدول المسيحية، أي إلى أصلها وطبيعتها الأولى.

نفس السياسة انتهجتها السلطات الصهيونية في القضاء على الأسماء العربية الفلسطينية وتهديتها (زرع الأسماء اليهودية) وكذلك البحث من خلال الحفريات والتنقيب على ما يؤكد مزاعمهم، إذن الاسم هو من أهم الأسلحة الممكن اعتمادها في إثبات الحقوق والهوية الترابية.

*أسماء الأماكن تذكرنا بالبطولات التي خاضها السكان ضد الغزاة.

تاسعا: التغير الاجتماعي والثقافي والطوبونوميا:

التغير في ذاته ظاهرة طبيعية تخضع لها جميع مظاهر الكون وشؤون الحياة المختلفة، وقديما قال الفيلسوف اليوناني "هيرقليطس" "Hericalitus": "إن التغير قانون الوجود، والاستقرار موت وعدم"، كما عبر عن التغير في قوله الشهير: "إنك لا تنزل البحر مرتين فإن مياه جديدة تجري من حولك أبدا".¹⁸

كما يعرف التغير الاجتماعي بأنه: "تحول يحدث في النظم والأنساق والأجهزة الاجتماعية، سواء كان ذلك في البناء أو الوظيفة خلال فترة زمنية محددة"، ولما كانت النظم في المجتمع مترابطة ومتداخلة ومتكاملة بنائيا ووظيفيا فإن أي تغير يحدث في ظاهرة لا بد أن يؤدي إلى سلسلة من التغيرات الفرعية التي تصيب معظم جوانب الحياة بدرجات متفاوتة".¹⁹ وعليه عملية التغير عملية حتمية طبيعية تمس كل جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية، كما أنها تعرف بالسرعة والعنف تارة أخرى.

وفي ظل هذه الحالات من التطور والتغير الدائم والمستمر وتنوع حاجات الإنسان، أصبح من الضروري الاهتمام بأسماء الأماكن والمواقع، حيث توسع المدينة والحياة الحضرية فرض على المجتمعات الإنسانية التدقيق والتحكم في الطوبونوميا وهذا لتسهيل حياة الأفراد.

إن صناعة أسماء الأماكن كانت إلى زمن قريب مثلا عندنا في الجزائر من صناعة عامة الأفراد في إطار تنظيم شؤونهم الحياتية إلا أنه اليوم ومع التوسع العمراني والانفجار الديموغرافي أصبح من الضروري التحكم في عملية تسمية الأماكن والمواقع المختلفة.

وعليه يتطلب التغير في ميدان الحياة الاجتماعية ضرورة تكيف الأفراد لمقتضياته ووفقا لما يتطلبه من مستحدثات، لأنهم إذا وقفوا جامدين غلبوا على أمرهم والتمسوا الفرار من ضغوط البيئة، ومعنى هذا أن الأفراد يجب أن يكونوا أدوات حية في مرونة لدواعي التغير حتى يمكنهم مسطرة ركب الحضارة وعجلة التقدم.²⁰

ومنه نقول أن التكيف مع التغير الاجتماعي والثقافي يشترط أن يكون الأفراد قادرين على التعامل مع مجمل لرموز والأدوات المنظمة للحياة الاجتماعية، ومنها أسماء الأماكن، حيث كلما يكون هناك أسماء خاصة بالأماكن المختلفة، كلما سهل هذا من عملية التواصل والتواجد في تلك الفضاءات.

كما نشير إلى أن التغير الاجتماعي والثقافي يشمل كافة أوجه الحياة الاجتماعية بما فيها أسماء الأماكن والتي بدورها تخضع لقانون التغير، فهي مطالبة بدورها مواكبة هذا التغير.

في الماضي كانت المدن صغيرة الحجم وسكانها متجانسون يعرفون بعضهم البعض، إلى درجة أنه لو تغيب واحد منهم مثلا "عن المسجد" أو أي مناسبة أخرى لوجدنا سكان المدينة (أو الحي) يتساءلون عنه ويستقصون أمره، وكان الوصول إلى

18 - د. عبد الباسط محمد حسن، التنمية الاجتماعية، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، 1983، ص. 205.

19 - د. دلال ملحس استيتية، التغير الاجتماعي والثقافي، ط 3، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2008، ص. 19.

20 - نفس المرجع، ص. 20.



أحدهم يحصل بمجرد السؤال عنه في السوق أو المسجد أو سؤال أحد المارة في الطريق، لذلك كانت الرسائل مضمونة الوصول بدون عنوان.

إلا أنه اليوم أصبح من المستحيل التنقل من مكان إلى آخر دون معرفة العنوان – اسم المكان أو الموقع بدقة-وهذا راجع كما قلنا إلى الانفجار الديمغرافي والعمراني الهائل وصعوبة إيجاد الأماكن دون التسميات.

عاشرا: من يطلق أسماء الأماكن والمواقع:

في الغالب يطلق التسميات على الأماكن والمواقع الغالب le Vainqueur، فالإنسان الأول مثلا عند تغلبه على الطبيعة وعدوا نيتهما وترويضها لصالحه قام بتنظيم الفضاء وتحديدده، أي ما هو له وما هو لغيره، بعدها أطلق على هذه الأماكن والمجالات أسماء حتى يميز بينها وبين باقي المواقع والأماكن الأخرى.

كما أنه خلال الفترة الاستعمارية نجد أن المستعمر قام بإلغاء الأسماء الجزائرية ذات الصلة بالعروبة والإسلام وحتى تلك التي تشير إلى السكان الأصليين للمستعمرة وعمل على استبدالها بأسماء فرنسية، هذه العملية لم تخص فقط الجزائر بل كافة المستعمرات، فالعالم قام بالترويج للحضارة اللاتينية المسيحية خدمة لمشروعه الاستعماري المسمى بالمهمة الحضارية Mission Civilisatrice، فالاسم بالنسبة للمستعمر (الغالب) له دلالات عدة وأداة من أدوات الغزو الثقافي والتغريب.

نفس الظاهرة نجدها على سبيل المثال في العراق بعد سقوط بغداد وانتهيار نظام صدام حسين، حيث قام الأمريكيون بإعادة ترتيب البيت العراقي من خلال كذا نزع وإلغاء الأسماء التي كانت موجودة واستبدالها بأسماء غربية أمريكية.

كما قامت بدورها الجماعات الشيعية في العراق بعد غزوه من طرف الأمريكان بالانتقام من كل الرموز السنية ومن بينها أسماء الشوارع، الميادين والجسور والمساجد والمتاحف والمستشفيات والجامعات والأحياء بكاملها... إلخ، وخلع الأسماء التي لها صلة بالتراث السني واستبدالها بأسماء شيعية، وهذا تحت حماية القوات النازية الأمريكية.

وقد نتج عن هذا التوزيع المجالي والهيمنة عليه تحديد هويته اسما وانتماءه مذهبيا –ثقافيا- فرق كبير بين السنة والشيعية في العراق.

وعليه فالإنسان ابن بيئته وكل من يسيطر على المكان ويتحكم فيه يخضع الآخرين لنفوذه وإملاءاته.

وقد جاءت نظرية العالم أديري Ardery القائلة بأن الإنسان مجالي بالطبع وأنه يدافع على مجاله ضد تواجد الآخرين فيه، حيث بعد تحديده وضبط حدوده ومعالمه وتسميته يصبح ملك له، وتواجد الآخرين فيه أو محاولة الولوج إليه هو اعتداء على ممتلكاته أو خصائصه.

وعليه فالتسميات الجديدة للأماكن في العراق –مثلا- من طرف الشيعة تسمح لهم بالتوسع في الخريطة الجغرافية، وكسب المزيد من النفوذ والهيمنة المجالية، وكذلك انتشار الرموز الشيعية لرموز السنة ومنها أسماء الأماكن والمواقع، إنها حرب طوبونيمية، من يفوز بها، يفوز بالمكان ويعطيه صبغته الثقافية والإيديولوجية.

الخاتمة



يعد موضوع تسمية الأماكن (Toponymie) من المواضيع العلمية المتشعبة الحديثة العهد نسبيا في مجال الدراسات الاجتماعية والإنسانية، هذا وقد أصبح هذا العلم "الطوبونيميا" من العلوم التي لا يمكن تجاوزها نظرا لما من أهمية بالنسبة لعدة علوم كالتاريخ، الجغرافية، علم الكرتوغرافية، علم اللسانيات، علم الأنثروبولوجيا وغيرها من العلوم الأخرى.

لقد اهتم العرب وخاصة الجغرافيين والرحالة الأوائل بتسمية المكان ونقلوا لنا من خلال رحلاتهم وكتاباتهم قصص حية عن علاقة الإنسان بالمكان وكيف استطاع أن يسخره لصالحه وجعل منه امتدادا لوجوده وتعبيرا صادقا لعبقريته. هذا وقد توصلنا من خلال هذا البحث الوقوف على عدة معلومات وأسرار خاصة بمسألة تسمية الأماكن، منها أن اسم المكان ليس مجرد تعبير أو ألفاظ تطلق على المكان أو الموقع بل هو أكبر من ذلك، إنه قصة ذلك المكان وتفاعل الإنسان معه، إن تسمية الأماكن هي جزء لا يتجزأ من الهوية الثقافية والخصوصية التي تميز الإنسان ومجاليه، كما بنا من خلال هذا العمل أن اسم المكان يخضع لقانون التغيير كغيره من الظواهر وأنه أداة من الأدوات الثقافية التاريخية التي يستعملها الغالب في فرض هيمنته وسيطرته.

وأخيرا نقول بأن في أمس الحاجة للدراسات العلمية في مجال الطوبونيميا في وقت أصبحت فيه تهديدات العولمة الثقافية أكبر خطر نواجهه في مجتمعاتنا العربية والإسلامية.

قائمة المراجع:

- 1- إدريس محمد الأمين، إشكالية ترجمة الأسماء الموقعية من منظور استراتيجي، التدجين والتغريب بالترجمة، الأردن، ص. 05.
- 2- أسماء حمايدية، أسماء الأعلام في الجزائر مقاربة أنثرولسانية، أعمال ملتقى ملامح وحدة المجتمع الجزائري من خلال الواقع اللغوي الأنوماستيكي الطوبونيمي في مجتمع المعرفة، دار الخلدونية للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2018، ص. 204.
- 3- الصادق زباني: "التحولات الطوبونيميا بالمجالات الكتامية من نهاية الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الهجري التاسع/15م"، دراسة نماذج مدارات تاريخية، العدد 04، الجزائر، 2019، ص. 39.
- 4- د. دلال ملحس استيتية، التغيير الاجتماعي والثقافي، ط 3، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2008، ص. 19.
- 5- د. عبد الباسط محمد حسن، التنمية الاجتماعية، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، 1983، ص. 205.
- 6- رؤوف بن الجودي، الطوبونيم الجزائري.. المفهوم وأشياء أخرى، نقلا عن <https://fawassil.echaab.dz/2023/03/04> الطوبونيم الجزائري مفهوم وأشياء أخرى.



7-سليمة يحياوي، نحو بناء معجم طوبونيمي إلكتروني لخدمة السياحة –تلمسان أنموذجا-، رسالة دكتوراه في الدراسات اللغوية بين القديم والحديث، جامعة أبو بكر بلقايد، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، 2017-2018، ص. 13.

8-عبد السلام جليط: صداقة الأمكنة <https://www.aljazeera.net/blogs/2017/5/9> صداقة -الأمكنة، تاريخ التصفح: 2024/02/06.

9-مليلة صالحي: "الأودونيم في مدينة البليدة بين تأصيل الهوية والتشويه الكولونيالي، المجلة التاريخية الجزائرية، العدد 2، وهران، الجزائر، 2021، ص.ص. 686-687.

10-Atoui Brahim : Toponymie et espace en Algérie, thèse pour l'obtention du diplôme de NNT : 1996 AIX (Doctorat, Géographie, université de Provence –AIX- Marseille, 1996 Français ; p. 33. 10098

11-Charles Rostaing : Les Noms des lieux, éditions P. U. F, Paris, 1945, p. 05.
12-مرشد علوان حسين الدوجان، الطوبونيميا التاريخية لمدينة جرش، دراسة في أسمائها وألقابها، الأردن، 2022، ص. 9.